بَدْءُ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللهِ

للإمام الحارث المحاسبي

تَعْلِيق

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري



بدء من أناب إلى الله

للإمام الحارث المحاسبي

تعليق

دكتور / هشام عبد الجواد الزهيري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثانية

٢٠٢٥م / ١٤٤٦هـ

رقم الإيداع: ٣٢٩٥/ ٢٠٢٥

الترقيم الدولي: 978-633-99581-4-4



+2 0100 790 5106

+2 0100 287 5636

03 52 69 4 59

«كتاب بدء من أناب إلى الله»

التعريف بالمؤلف:

هو الحارث بن أسد بن عبد الله أبو عبد الله المحَاسِبي قيل سُمِّي بذلك لكثرة محاسبته لنفسه. ولد سنة ١٧٠هـ في مدينة البصرة.

- **قَالَ الخطيب البغدادي:** أبو عبد الله المحاسبي أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة وكتبه كثيرة الفوائد، جمة المنافع.

- **وَقَالَ الذهبي:** المحاسبي الزاهد العارف كبير القدر، صاحب التصانيف الزهدية.

- **وَقَالَ ابن الأعرابي:** تفقه الحارث وكتب الحديث وعرف مذاهب النُّسَّاك.

- **وَقَالَ أبو منصور البغدادي:** كان إمامًا في الفقه والتصوف والحديث والكلام.

- **وَقَالَ ابن حجر:** كان عالمًا فهمًا، وله مصنفات في أصول الديانات، وكتب في الزهد.

ـ **وَقَالَ ابن العماد الحنبلي:** الزاهد الناطق بالحكمة، الحارث بن أسد المحاسبي، صاحب المصنفات، له مصنفات نفيسة في السلوك والأصول. ولكن سُئِلَ أبو زرعة عن كتبه فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر.

ـ **قَالَ الذهبي:** مات الحارث سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وأين مثل الحارث؟! فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين.

ـ **وَقَالَ ابن كثير:** وقال الإمام أحمد لإسماعيل بن إسحاق السراج لمّا حضر درسًا للمحاسبي دون أن يعلم به المحاسبي وأصحابه، فقال الإمام أحمد: ما رأيتُ أحدًا يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ (أي أصحابه الذين معه)، وَمَعَ هَذَا فَلَا أَرَى لَكَ أَنْ تَجْتَمِعَ بِهِمْ. **قَالَ الْبَيْهَقِيُّ:** يُحْتَمَلُ أَنَّهُ كَرِهَ صُحْبَتَهُمْ؛ لِأَنَّ الْحَارِثَ وَإِنْ كَانَ زَاهِدًا، فَإِنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ، وَكَانَ أَحْمَدُ يَكْرَهُ ذَلِك، أَوْ كَرِهَ لَهُ صُحْبَتَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَا يُطِيقُ سُلُوكَ طَرِيقَتِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ. **قَالَ ابن كثير:** بَلْ إِنَّمَا كَرِهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ فِي كَلَامهم مِنَ التَّقَشُّفِ وشدة السُلُوك الَّتِي لَمْ يَرِدْ بِهَا الشَّرْعُ

وَالتَّدْقِيقُ وَالمُحَاسَبَةُ الدقيقة الْبَلِيغَةُ مَا لَمْ يَأْتِ بِهَا أَمْرٌ، وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ عَلَى كِتَابِ الْحَارِثِ الْمُسَمَّى «بِالرِّعَايَةِ» قَالَ: هَذَا بِدْعَةٌ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَهُ بِالْكِتَابِ: عَلَيْكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ، وَدَعْ هَذَا فَإِنَّهُ بِدْعَةٌ. أ.هـ.

وَقَالَ الخطيب البغدادي: كان أحمد بن حنبل يكره لحارث نظره في علم الكلام، وتصانيفه الكتب فيه ويصدُّ الناس عنه. أ.هـ.

وَقَالَ أيضًا: كان الإمام أحمد يكره أن يصحب المحاسبي أهلُ الحديث لما هو وأصحابه عليه من المبالغة في الزهد والتقشف التي لم يأت بها الشرع، ولِمَا دخل فيه من الكلام. أ.هـ.

وَقَالَ الغزالي: وبالغ الإمام أحمد في ذمّ علم الكلام حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابًا في الرد على المبتدعة، وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أولًا ثمّ ترد عليهم؟! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث. أ.هـ.

قَالَ شيخ الإسلام: هجران أحمد للحارث لم يكن لهذا السبب الذي ذكره أبو حامد وَإِنَّما هجره لأنّه كان على قول ابن كُلَّاب الذي وافق المعتزلة على صحة طريق الحركات وصحة طريق التركيب، ولم يوافقهم على نفي الصفات مطلقًا. وكذلك السري السقطي كان يحذر الجنيد بن محمد من شقاشق الحارث، ثُمَّ ذكر غير واحد أنّ الحارث رجع عن ذلك كما ذكره معمر بن زياد في أخبار شيوخ أهل المعرفة والصوفية، وذكر أبو بكر الكلاباذي في كتاب التعرف لمذاهب التصوف أَنَّ الحارث كان يقول: إِنَّ الله يتكلم بصوت، وهذا يناقض قول ابن كُلَّاب. أ.هـ. (من كتاب درء تعارض العقل والنقل).

قُلْتُ: الحارث رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد نقل عنه شيخ الإسلام رجوعه عن علم الكلام، كما أنّ المنقول عنه في ذلك شيء يسير لم يكن هو أكثر كلامه ولا غالبه ولا يخرجه عن أهل السُّنّة في الجملة، ولكن لـمّا ظهر كلامه هذا في عصر الأئمة كأحمد وأبي زرعة وغيرهما اشتد النكير عليه حِفظًا للسُّنّة وتنفيرًا للنّاس عن البدع من أول ظهور بوادرها، وفي كتبه خيرٌ كثيرٌ، ودقائق ـ كما

قال ابن كثير ـ لم ترد عن السلف، ولكن نحن في زمنٍ قد غلبت فيه المادية وطغت، وابتعد أكثر النّاس عن الزهد، فلا يكاد يُتصور العمل بمثل هذه الدقائق اليوم، على أننا نقول: لا يقرأ كتبه إِلَّا من يميز ما يوافق منهج السلف ممّا يخالفه، ولا يُورَد مثل هذا الكلام إِلَّا مع التنبيه عليه، والله المستعان وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إِلَّا بالله العلي العظيم.



فائدة هامة

اعلم أنّ فيما ذكره المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما لا يُوَافَق عليه وسأنبِّه على ذلك في موطنه إن شاء الله، ولكن لهذه الرسالة ـ والله أعلم ـ **فوائد هامّة:**

ـ **منها:** بيانٌ دقيق لطبع النفس من التكاسل عن الطاعة واستثقالها والملل من التلبس بها بينما يخف عليها ما فيه عطبها وهلاكها من الشهوات والمحرمات، فمعرفة المرء ذلك من نفسه وفهمه لذلك هو أولى خطوات الإصلاح.

ـ **ومنها:** بيان أنّ علاج استثقال الطاعة هو إلزام النفس بالأوراد ـ فيما تطيق ـ وعدم الاستجابة لدواعي كسلها، وأنّ ذلك سينقلب بعد حين إلى استحلاء وتلذذ، كما قال بعض الصالحين: قدتُ نفسي إلى الله وهي تبكي فلم أزل بها حتى قادتني وهي تضحك.

ـ **ومنها:** أنّ العبد يزيد من الأوراد على نفسه الكسولة، وأنّه كلما زاد كسلها، زاد من الأوراد عليها حتى تعلم أنّ العبد جادٌّ في عزمه على تأديبها، وحتى تعلم أنّ ما دعاها إليه من الطاعة

أول مرّة إنّما هو شيءٌ يسير في حقِّ الله، ثمّ إذا استقامت على ذلك خفَّف عنها. وهذا كلامٌ صحيح وهو لا يعارض قوله ﷺ: «**اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ**»، فالذي ستستقر عليه النفس هو ما تطيقه، وباب التأديب مستثنى من ذلك. كما أنّ التأديب لا يكون بما لا تطيقه النفس ولكن بما يزيد على ما طولبت به أول مرة فلا يعارض ذلك الحديث، فالذي ينبغي هو التأديب بما تُطاق المداومة عليه ولكن لا يُبْدَأ به مع النفس لأنّ أخذها إلى الطاعة ينبغي أن يكون تدريجيًا، فإن كان قصد المؤلف ـ وهو ظاهر كلامه ـ التأديبِ بالكثير من الطاعة بحيث يُجهدها، فهذا فيه نظر، والله أعلم.

ـ **ومنها**: بيان أنّ الغالب على النفس هو الرجاء بل التمني وأنّ خوفها ضعيف، فينبغي قيادة النفس بسوط الخوف حتى يعتدل مع الرجاء. وأنّ جانب الخوف إذا غلب على النفس فينبغي للعبد أن يقوِّي فيها جانب الرجاء ليعتدلا. ولكن قد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ العبد إذا اجتهد في تخويف نفسه، فإنّ الله يرحمه ويجبر كسر نفسه بفتح باب الرجاء على قلبه، وهذا كلامٌ صحيح ولكن

ينبغي بيان أنّ فتح باب الرجاء يكون بذكر آلاء الله ورحماته وبمطالعة آيات وأحاديث الرجاء، وقد أجاد وأفاد الإمام ابن أبي الدنيا بذكر جملةٍ حسنةٍ من ذلك في كتاب «حسن الظنّ بالله».

ـ **ومنها**: أنّ القلب إذا اجتمع فيه جانبا الخوف والرجاء، فإنّ ذلك يورث القلب بعد ذلك شكر الله وحمده، فالحمدُ الحقُّ لله إنّما هو من العبد الخائف الراجي لفضل ربِّه.

ـ **ومنها**: بيان ما يعرض للعبد المحسن من آفة العجب وآفة تعالي القلب على غيره من المسلمين وغير ذلك، وبيان ما يداوي به المرءُ قلبه من ذلك.

ـ **ومنها**: بيان طريقٍ مسلوك قد سلكه هو ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ على ما يظهر، وليس هو كلامًا نظريًا مجردًا بعيدًا عن واقع التطبيق، نعم فيما ذكره ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ما لا يُوافَق عليه ولكننا في زماننا هذا ـ خاصةً ـ بحاجة ماسّة إلى ما يرفع الهمم ويقوِّي العزائم ويزهِّد في الدنيا ويُرغِّب في طريق الزهد والعبادة، وعرض حال المبالغين في الزهد والتقلل في مثل زماننا قد يكون أنفع وأنجع في مداواة مزيد تعلُّق القلوب بالدنيا، ومن المعلوم أنّ

مثل هذه الطرق والأحوال لا يكاد يقدر عليها أكثر الناس، فما يُخْشَى من المبالغة المفضية إلى الانقطاع لا يكاد يوجد، وتبقى هذه الأحوال حافزًا قويًا لشحذ الهمم عند فتورها وزجر النفوس عند عُجبها.

ـ **ومنها**: بيان أنّ محاسبة النفس لا تكاد تنفع إلَّا مع نفسٍ يشعر صاحبها بالتقصير الشديد في أمر دينها، وقد ذكر ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ طريق إشعار النفس بذلك، وهو مراجعتها في إقبالها على أمر دينها، وأمر دنياها وهواها وشهواتها، ومقارنة حالها في الأمرين، وكيف يكون إقبالها على هواها وشهواتها، وكيف يكون تقاعسها وتكاسلها في أمور دينها.

ـ **ومنها**: بيان أنّ النفس التائبة لا تزال تحنّ إلى بعض المعاصي والشهوات ـ ويزداد ذلك عند ورود أسبابها ـ وأنّ الله برحمته ولطفه يتوب على العبد ويمحو عن قلبه ذلك إذا أخلص وصدق مع الله في توبته وإنابته ودام على طاعته.

ـ **ومنها**: بيانٌ جميلٌ لحال المحسن في قيامه وصلاته، وما يورثه الزهد والإنابة من لذةٍ في الصلاة وسعادة، وقد عرض

- رَحِمَهُ ٱللَّهُ - ذلك بطريقة تورث النفوسَ الشوقَ إلى سلوك الطريق التي رسمها وشرح أعلامها.

- **ومنها**: بيانُ أنّ أحسن النّاس شرحًا وبيانًا لطريق صلاحٍ وزهدٍ، هو العامل السالك لهذه الطريق، فهو يبين عن بصيرةٍ وتجربةٍ وليس عن كلامٍ مجرد.

- **ومنها**: وهي من أهمّها، أنّ الله هو الذي يريد بعبده الخير فيُلهمه رشده ويرزقه الإنابة ويهدي قلبه لابتداء السعي في الخير، ثمّ يوفقه ويسدده في سلوكه الطريق ويعينه حتى يوصله إلى مرضاته سبحانه، فلله الحمد والمنة أولًا وآخرًا، ولذا قال في أول الرسالة: «أنّ الله أحظر بقلب عبده العارف ذكره وذكر آخرته».

- **ومنها**: أنّ ما ذكره من عتاب النفس ومحاسبتها وتأديبها يصلح مع العاصي ويصلح مع المؤمن المقصِّر في بعض الواجبات ويصلح مع المؤمن المتكاسل عن الاجتهاد في العمل الصالح، فكلٌّ يجد في هذه الرسالة عتابًا لنفسه ومحاسبةً على التقصير وشاحذًا للسعي إلى طاعة الله وطلب مرضاته.

ـ ومنها: بيان سعي النفس الحثيث للتعزز وإظهار الشرف والتعالي بطاعاتها، فهي تحب هذا الشعور وتحاول بكلِّ ممكنٍ لإقناع صاحبها بذلك ليستقر فيه هذا الشعور وتنال هي شهوتها ونشوتها. وكذا أبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لُطفٍ ودقة ما يصدُّ به المؤمنُ نفسه عن هذه الخطرات وما يعالج به فيها هذه الآفات، فأجاد وأفاد. واعلم أنّ ورود الخطرات بذلك لا يكاد يسلم منه إلا الصديقون ولكن العبرة بأمرين وهما: عدم استقرار هذه الخطرات بل دفع المؤمن لها أولًا بأول. **والثاني:** عدم كثرتها فمتى كثرت وتواتر ورودها على النفس فإنّ ذلك من علامات ضعف الإيمان، نعم لا يُحاسَب العبد عليها مالم تستقر، لكن قلوب المحسنين يعصمها اللهُ من كثرة توارد مثل هذه الخطرات عليها، واعتبر في ذلك بحال أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يوم الحديبية، فأبو بكر لم يأته خاطرُ شكٍ أصلًا ولا تردد في قبول الصلح الذي عقده ﷺ، وأمّا عمر فتردد وراجع رسول الله ﷺ وكان كلما تذكر ذلك عمل لها أعمالًا فأبو بكر في أعلى مراحل الصديقية وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صديق أيضًا ولكن منزلته ـ رغم عظيم علوها ـ أقل من منزلة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

- **ومنها**: أنّه قد أبان أنّ بداية الطريق هو عتاب النفس وتقريرها بعظيم تقصيرها، وما ذكره هو من كون النفس تُقْبل بنشاطٍ على المعاصي والشهوات وتتكاسل عن الطاعات، هذا الذي ذكره هو حالُ أكثر النّاس، ولكلٍّ واحدٍ بالإضافة إلى ذلك أنواعٌ أخرى من التقصير يعاتب بها نفسه كمعصيةٍ معينة أو معاصٍ لم يتب منها العبد، وإذا تاب فتوبته ناقصة لا يجد معها ندمًا يناسب قدر معصيته، وطريقه في الوصول إلى هذا الندم هو مواصلة عتاب النفس ومحاسبتها.

- **ومنها**: بيان ما يعوق المريد عن كمال الهداية، وقد ذكر المحاسبي في هذه الرسالة الرياء والعجب والكبر والعزة، وذكر في آداب النفوس أنّ المخاوف التي يجب أن يحذرها السالك تسعة: **الأول:** أن يخاف ويدعو ألّا يكله اللهُ إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلمًا وعدوانًا. **الثاني:** أن يخاف من كفران النعم التي بطر بها ولم يشكر عليها. **الثالث:** خوف الاستدراج بالنعم. **الرابع:** خوف أن تُرَدَّ عليه أعماله. **الخامس:** خوف الذنوب التي عملها. **السادس:** خوف تبعات النّاس عنده (أي

حقوقهم). **السابع:** خوف ما يحدث له في بقية عمره. **الثامن:** خوف تعجيل العقوبة في الدنيا. **التاسع:** الخوف من سابق علم الله فيه وفي أيِّ الدارين أثبت اسمه (أي حين كُتب عليه أشقي هو أم سعيد!).

- ومنها: بيان أَنَّ النفس ستعترف وتقر بذنوبها وسوء صنيعها بعد مداومة العبد على معاتبتها وتقريرها وبعد إلحاحه عليها.



قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عونك اللّهم

قال المحاسبي: قُلْتُ(١): ما بدء مَنْ أناب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟

قال: ابتداء مَنْ أقبل على ربه، وعمل لطلب مرضاته: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ(٢). ومعرفته بنفسه، كيف سوء رغبتها(٣)؟ وضعفها في طلب نجاتها في آخرتها؟ فأدّبها بأدب الله واستقامت إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

قُلْتُ: وكيف كان بدءُ ذلك كلِّه حتى أدّبها بأدب مولاها(٤)؟

---

(١) افترض رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه سائلًا لشيخ، والشيخ يجيبه، لأنّ طريقة السؤال والجواب غالبًا ما تكون أنفع.

(٢) الأدق والأقرب إلى ألفاظ الشرع أن نقول: العلم بالله لحديث: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ» ويجوز لفظ المعرفة لحديث الترمذي: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ». والمراد: معرفة قدر الله وصفاته وما يحق له سبحانه من العبادة والتعظيم.

(٣) أي سوء رغبتها في طاعة الله ومرضاته وذلك بسوء عملها.

(٤) أي بالأدب الذي أمر به مولاها وارتضاه لها.

قال: إنّ أول ذلك أنّ الله أخطر بقلب عبده العارف ذكرَه وذكرَ آخرتِه، وحرَّكه للفكر، والتذكر لعظيم قدر مولاه وقدر رضاه، وقدر سخطه، وما وعد وتوعَّد، واستنار بذلك قلبه، ثُمَّ نبّهه لمعرفته بنفسه. وأول ذلك أنه نبَّهه لتذكر ما أسلف من جناية نفسه عليه من كثرة الذنوب التي كُتبت عليه في صحيفته، ولا يُمحى ما فيها عنه حتى يوقفه عليه ربُّه[1]، ويسائله عن جميع

(١) هذا اختيارٌ منه لكون السيئات لا تُمحى وظاهره ولو تاب منها، وفي المسألة خلافٌ ويشهد لمن قال: تكتب ولو تاب ويُكتب معها التوبة قوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٨)، قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: فقوله ﷺ: **«أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»** ظاهره أن السيئات تمحى بالحسنات، وقد تقدم ذكر الآثار التي فيها أن السيئة تمحى من صحف الملائكة بالحسنة إذا عملت بعدها. قال عطية العوفي: بلغني أنه من بكى على خطيئته محيت عنه وكتبت له حسنة. وعن عبد الله بن عمرو قال: من ذكر خطيئة عملها فوجل قلبه منها فاستغفر الله عَزَّوَجَلَّ لم يحبسها شيء حتى يمحوها عند الرحمن. وقال بشير بن الحارث: بلغني عن الفضيل بنر عياض قال: بكاء النهار يمحو ذنوب العلانية، وبكاء الليل يمحو ذنوب السر، وقد ذكرنا قول النبي ﷺ: **«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ»** الحديث. وقال طائفة: لا تُمحى الذنوب =

= من صحائف الأعمال بتوبة ولا غيرها، بل لابد أن يوقف عليها صاحبها ويقرأها يوم القيامة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ (الكهف: ٤٩). وفي الاستدلال بهذه الآية نظر، لأنّه إنّما ذكر فيها حال المجرمين وهم أهل الجرائم والذنوب العظيمة فلا يدخل فيهم المؤمنون التائبون من ذنوبهم أو المغفورة ذنوبهم بحسناتهم، وأظهر من هذا الاستدلال بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨). وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا القول هو الصحيح عند المحققين. وقد رُوِيَ هذا القول عن الحسن البصري وبلال بن سعد الدمشقي. قال الحسن: فالعبد يذنب ثم يتوب ويستغفر الله فيغفر له، ولكن لا يمحاه من كتابه دون أن يقف عليه ثم يسأله عنه، ثم بكي الحسن بكاءً شديدًا وقال: ولو لم نبك إلَّا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغي لنا أن نبكي. وقال بلال بن سعد: إن الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب. وقال أبو هريرة: «يدني الله العبد يوم القيامة فيضع عليه كنفه، فيستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول: اقرأ يا بن آدم كتابك، فيقرأ فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه فَيُسَرُّ بها قلبه، فيقول الله أتعرف يا عبدي، فيقول نعم، فيقول: إني قبلتها منك، فيسجد، فيقول: ارفع رأسك وعد في كتابك، فيمر بالسيئة فيسودُ لها وجهه=

ما جنت عليه نفسه ممّا كتبه وأثبته عليه، فيقرّ له بأعظم الحياء وأشد الخطر وأعظم الخوف والوجل(١). ومع ذلك أنّه لا يأمن أن يبدو له عند قراءته ما في صحيفته من اللهِ الغضبُ، فيُجرّ ويُسحب من بين يدي الله إلى عذاب الأبد(٢).

= ويوجل لها قلبه وترتعد منها فرائصه ويأخذه من الحياء من ربِّه ما لا يعلمه غيره، فيقول الله أتعرف يا عبدي؟ فيقول نعم يارب، فيقول: إني قد غفرتها لك، فيسجد فلا يرى منه الخلائق إلَّا السجود حتي ينادي بعضهم بعضًا طوبى لهذا العبد الذي لم يعصِ الله قط ولا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين ربِّه عَزَّوَجَلَّ مما قد وقفه عليه. وقال أبو عثمان النهدي عن سلمان: يُعطى الرجل صحيفته يوم القيامة فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته فلما كاد يسوء ظنُّه، نظر في أسفلها فاذا حسناته، ثم نظر إلى أعلاها فإذا هي قد بدلت. ورُوِيَ عن ابن مسعود عن أبي عثمان من قوله وهو أصح.

(١) يشهد للإقرار هذا حديث : «وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللَّهُ مُحَاضَرَةً حَتَّى إِنَّهُ يَقُولُ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ: أَلَا تَذْكُرُ يَا فُلَانُ يَوْمَ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ يُذَكِّرُهُ بَعْضَ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ» (صححه الهيثمي).

(٢) لا يكون في عذاب الأبد إلا الكافر، فلعله قصد أنّ المعاصي قد تجره إلى الكفر بسبب إدمان المعاصي أو الاستهانة بها.

ـ ثُمَّ ذكَّره أنّ نفسه كانت في جميع ما جنت عليه من سالف عمره، تأتيه بسرورٍ ونشاط، لم تزل مختلفةً[1] راغبةً متيقظةً فطنةً متلحظةً إلى ما يُهلكها في آخرتها، مسرورةً متلذذة متنعِّمةً بما يُسخِط مولاها عليها، كأن الله تعالى لا يميتها ولا يُفنيها، وعن سوء فعالها لا يسألها. وكأنّه لم يزجرها ولم يتوعدها، بل كأنّه إذ زجرها وتوعدها لا يقدر على عذابها بما يهددها به، أو كأنّها محصنةٌ منه، لها ناصرٌ ينصرها. وكانت مع سرورها ونشاطها في جميع ما يكره ربُّها، معرضةً عن (نجاتها) حياتها في آخرتها، مستثقلةً لأقل القليل ممّا يُرضي عنها ربَّها، نافرةً ناشزةً، كارهةً، مبغضةً للتعرض لأسباب فوزها عند مولاها، فإن عملت بالقليل من طاعة مولاها فمجبورة، مكرهة بعد جذبٍ منه لها ومجاهدة. فإن طال المكث في طاعته ممّا يقربها إلى ربها، نازعته إلى تركها وثقَّلت عليه ما هو فيه، وذكَّرته طيب راحة بدنه في ترك تعب الطاعة، وخوَّفته فوت بعض حظِّه[2]. وإن أراد بذلَ

(١) مختلفة: أي تأتيها حينًا بعد حين ووقتًا بعد وقت.

(٢) أي حظوظ الدنيا وشهواتها، ولا شك أنّ الطاعة قد تكون ثقيلةً في أول الأمر ولكنها مع المداومة عليها ومع زيادة الإيمان تكون سهلةً يسيرةً تستحليها النفس.

القليل من ملكه لآخرته ألزمته الاغتمام بنقصان ذلك من ماله، وخوَّفته الفقر إن دام على إخراج مثل ذلك. فإن أبى إِلَّا أن يقدِّمه لآخرته دعته إلى النقصان منه. فإن أبى إِلَّا إخراجه بغير نقصانٍ اغتمت لذلك، ولم تزل تقرعه[١] بعد إخراجه بنقصان ماله لئلا يعود إلى إخراج مثله، ويستعظم ذلك إذا أبى إِلَّا إخراجه.

ـ فلمّا تبين له ذلك، وعرف أنّ في طاعتها عطَبَها في يوم معاده، وأنّ في عصيانها نجاتَه في آخرته، وأنّها قد اعتادت سلوك طريق هلكته وألفت[٢] طول النفور والاشمئزاز ممّا يُرضي عنه سيده، وأنَّه إذا هجم عليه الموتُ، ولا أمان عنده من سرعة هجومه، لقي الله تعالى على ما يُسخطه. وإن بغته الموت على حالته كان فيها عطبه وهلاكه[٣] إِلَّا أن يعفو عنه

---

(١) تقرعه: أي تلومه وتعاتبه.

(٢) ألفت: اعتادت.

(٣) يشهد لذلك حديث الرجل الذي مات فأثنوا عليه خيرًا، فَقَالَ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ أَوْ بَخِلَ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ» (رواه الترمذي وضعفه الألباني).

ربُّه، وَأَنَّه لَا محيص له عن الموت ولا معدل له عن لقاء ربِّه، وَأَنَّه لا رجعة له إلى الدنيا بعد موته، وبعد لقاء خالقه، وأنّ تغرير النفس إياه بضعف بدنه(١) خطأٌ عظيم وحمقٌ بَيِّنٌ وهلاكٌ وعطب.

ـ فألزم قلبه العزم على تأديبها والمواظبة على توقيفها، والإلحاح على معاتبتها والدوام على عظتها، وتذكيرها ربَّها، وترداد ذكر عظيم خطرها، وأنَّها لابد لها من المصير إلى مولاها فلم تمكِّنه من معاتبتها وأعرضت عمَّا يقدعها(٢) به، ويذكِّرها. فكان أول ما بَدَأَها به من الأدب لِتَفْهَم وَتَعْقِل ما ألقى إليها، أن ألزمها الصمت(٣) وحال بينها وبين من يشغلها بحديثه(٤)، فلمّا

---

(١) أي ضعف بدنه وعدم قدرته على تحمل سلوك طريق الزهد والعبادة. وتغرير النفس أي خداعها له.

(٢) قدعها: القدع هو الكفُّ والمنع.

(٣) الصمت: هو ترك الكلام الباطل دون الحق.

(٤) المراد ترك مخالطة من يشغله عن طاعة الله، بدليل ذكر المصنف بعد ذلك استبدال المرء قرناء السوء بصحبة الصالحين.

لم تجد مَنْ تحادثه صمتت، فلمَّا طال الصمت سكتت(١)، فلمّا طال السكوت تبين لها كثيرٌ ممّا كانت تخوض فيه من الخطأ والزلل، وانكسرت لمَّا علمت أَنَّها كانت خائضةً في الباطل، متعرضةً لسخط مولاها.

- ثُمَّ ابتدأ في معاتبتها وتقريرها بالسوء الذي قد صنعت وبما هي إليه صائرة(٢) عن قليل، فلم يزل يُلحُّ عليها حتى لانت واعترفت بذنوبها، وأقرّت بسوء صنيعها ودوام غفلتها عن نجاتها. فلمَّا اعترفت بذلك ذكَّرها عظيم جرائمها وكثرة ذنوبها، وأدام ذلك عليها، وجعله عملَه لا عمل له

---

(١) السكوت: هو ترك الكلام مطلقًا حقًا كان أو بباطل، كما أنّ السكوت هو الصمت الطويل زمنًا بخلاف الصمت. ولا شك أنّ طول السكوت من أعظم ما يباعد المرء عن معصية الله، وفي الحديث الصحيح: **«مَنْ صَمَتَ نَجَا»**. وقيل الصمت هو سكوت اللسان وشغل النفس بالكلام، والسكوت هو سكوت اللسان والنفس جميعًا.

(٢) هذا من أعظم ما ينفع في وعظ النفس وتأديبها، وهو تذكريها بمعاصيها ثمّ بما يترتب على ذلك من الحساب وربما العقاب، ويصح أن يقصد بقوله «صائرة إليه» الموت؛ فإنّ ذكر الموت من أعظم ما يؤدب النفوس.

غيره[١] فأوجع ذلك ضميرها، فسالت دمعتها واستغفرت اللهَ ممّا تقدم من سوء صنيعها، فحمل عليها[٢] وذكَّرها أنّ المقام على ما عرفت وبه أقرت يُعرِّضها أن يحل بها سخط مولاها، ثُمَّ أخبرها أَنَّه لَا أمان عندها أن يكون قد غضب عليها ربُّها فيما أسلفت من معاصيها، فكيف تقيم عليها بعد ذلك، فأذعنت وسخت[٣] بالعزم على ترك المعاودة لذنوبها، فَطَهُر قلبه من الإصرار وأشرق واستنار[٤]، وعاود النظر وردَّد الفكر، وألحَّ بالفكر في الأسباب التي كانت تنال بها معاصيها من الأصحاب،

(١) إن قصد في الأوقات التي تبقى بعد الأوراد والأعمال الصالحة فلا بأس، وإن قصد ترك الأوراد والأعمال الصالحة المستحبة الأخرى، فلا يُسلَّم له ذلك، على أنّ الإكثار من العتاب هكذا وشغل جُلّ الوقت به لم يرد عن السلف، والله أعلم. وقد ذكر البعض أن مذهب المحاسبي أنّ شغل النفس بالعتاب والمحاسبة لتطهيرها من المعاصي خيرٌ من فعل النوافل مع الإقامة على المعصية والغفلة، وصدق ولكن خيرُ التطهير يكون بقراءة القرءان والذكر والصلاة والاستغفار.

(٢) أي هاجمها بالتذكير والعتاب.

(٣) أي جادت بالعزيمة وعزمت عليها.

(٤) فيه فائدة نفيسة وهي أنّ القلب لا يستنير بالطاعة مع الإصرار على المعصية.

ومن الأهل والقرابة، والخلطاء الذين كانوا يعاونونها، فدعاها إلى قطع جميع ذلك[١] ومباينته[٢] وأخبرها أنه لا تصح توبتها ولا تتوب إلى خالقه إلا بهجران ذلك كله، فنفرت ونشزت والتوت عليه وأبت فكسرها بإدمان الصيام[٣]، فانكسرت قوى طبعها التي نالتها من الاغتذاء بالطعام الذي كانت تألفه بالدسم، فانكسرت عن نشاطها، وهي مع ذلك موليةٌ عنه. فلمَّا رأى ذلك لم يبالغ في تأديبها أمسَّها[٤] الجوع، فلمَّا ألحّ عليها بالجوع ذلَّت وخشعت وأمكنت من المعاتبة، فحمل عليها بالزجر فلم

---

(١) إن قصد قطع الرحم والأهل بالكلية فلا، وإن قصد قطع الخلطة التي تلهيه عن الطاعة وتشغله عن ربه، فنعم ولكن مع قضاء حق الأهل والرحم.

(٢) مباينته: مفارقته، ولكن يُقيَّد أيضًا مع عدم ترك الحقوق.

(٣) قد شرع إدمان الصيام لقطع شهوة الفرج، ولا بأس بإدمانه لغرض التأديب دون أن يصوم كلّ الأيام بل لابد من فطره أيامًا لنهي الشرع عن صوم الدهر.

(٤) أي مع صيامها لا تأكل في السحور ولا الإفطار إلَّا قليلًا، ولا بأس بذلك مالم يقطعها الجوع عن القدرة على العبادة حتى حُكِيَ عن بعضهم أنّه كان لا يقدر على القيام في الفريضة من شدة الجوع والهزال، فهذا لا يُشرع بلا شك.

تقبل، فذكَّرها عذاب الله وسوء المصير لمن أعرض عنه وتعرض لمقته، فلانت له قليلًا، وسوَّفته ووعدته الترك لذلك عن قليلٍ لتقضي بعض حوائجها وتداري بعض من تحبه، فحمل عليها بالوعيد كما يحمل البطل على قرنه[١] وألح بالزجر والتذكير، وعظَّم عندها الربَّ عَزَّوَجَلَّ وكرر عليها شدة نقمته وعظيم عقوبته فأذعنت وطاوعت إلى إجابته إلى قطع تلك الأسباب، وأبت أن تقطع باقي أسباب معاصيها[٢]، فأمسك عنها وهو مغمومٌ بعصيانها[٣]، وينوي أنّها متى أرادت أن تتعرض للأسباب التي أبت أن تقطعها أن يحجزها عنها[٤]. فلمَّا قُطِعت بعض

---

(١) القرن: الخصم الذي يقاتل صاحبه، جعل النفس لعداوتها لصاحبها كالخصم.

(٢) أي أسباب المعصية الأخرى غير المخالطة لمن يشغله عن الطاعة، مثل النظر إلى المحرَّم وسماع المحرَّم وغير ذلك.

(٣) هذه فائدة نفيسة في تأديب النفس، وهي أنّ المرء إذا ألحّ على نفسه في ترك معصية أو مكروه وأبت، أنّه يتركها إلى حين مع أمرين: الأول: الاغتمام والحزن بسبب معصيتها ومخالفتها له. والثاني: الحذر والعزم على أنّها متى أرادت فعله أنّه لن يستجيب لها بل سيخالفها.

(٤) أي يمنعها عنها.

أسبابها، واستبدلت به أضدادها، من صاحبٍ مرشد بدلًا من الصاحب المغوي، ومن تيقظٍ وتذكرٍ بعد سهوٍ وغفلةٍ، ومن تثبتٍ وفكرة بعد طيشٍ وعجلة، والإدمان على مناجاة الرب جلّ ذكره بحلاوة تلاوة كتابه، والنظر في العلم من آثار نبيه ﷺ، وآداب الصالحين قبله (أي قبل هذا المسترشِد) بعد كثرة الخوض والاستراحة إلى محادثة المفسدين. واستبدل بعد كثرة الكلام صمتًا، وبكثرة اللحظ[١] إلى ما لا يحبه مولاه غضًّا[٢]، وبادر إلى ترك كثيرٍ من شهواته التي تباعده من ربه، وتوقّى كثيرًا مما خبث[٣] في مكاسبه وما لا يطيب في غذائه. فلمَّا بلغ هذا اجتمعت أنوار ذلك في قلبه، واستنارت مواريث الطاعة في عقله، وأيده الله تعالى بمعونته، وهو الذي ابتدأ تنبيهه، وحرَّك قلبه للنظر لنفسه، وعرَّفه سوء رغبتها وقلة مبالاتها بآخرتها.

---

(١) أي كثرة النظر.

(٢) غضًّا: غضّ بصره أي منعه وحجزه عن النظر إلى ما حرّم الله.

(٣) يقصد توقيه الخبيث كلّه والذي هو أكثر ماله، أو يقصد ترك كثيرًا من الحرام وأبقى القليل ليأكل منه على أن يكون دينًا عليه يقضيه ويخرجه متى تيسر له، ولا أظنّ المحاسبي قصد الثاني.

ـ فلمَّا استقر في قلبه ما وهبه الله سبحانه له من نور طاعته، والسرور بما همَّ[١] به، حيي قلبه وقوي عزمه وقهرت أنوار الطاعة هواه. والنفسُ بعد ذلك يعرض لها بعض ما ألفته ممّا كانت تلتذ به، منه ما تركته طوعًا ومنه ما نازعت إلى معاودته، فكلُّ ما تركته طوعًا حمد الله الذي منَّ[٢] بذلك عليه، وما نازعت إليه حمل عليها، وقاتل هواه كمحاربته قرنه من أعدائه. فإذا تركته كرهًا حمد الله عليه وغمَّه قلة سخائها بتركه[٣]، وكان حَذِرًا منها أن تعاوده، وما أبت إِلَّا مواقعته زجرها، فإن انزجرت وإِلَّا توعدها بعقوبةٍ؛ يأخذ منها من الراحة، ويُنزل بها من التعب، والنقصان من المال، والترك من اللذة من المباح أكثر من

(١) أي ما عزم عليه من سلوك طريق الطاعة وترك طريق الغفلة والبطالة.

(٢) هذه فائدة نفيسة في شكر العبد ربَّه على كل طاعةٍ يقوم بها ليزيده اللهُ منها ولئلا يُعجب بها؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧).

(٣) هذه فائدة نفيسة في كراهية المؤمن واغتمامه بعدم طواعية نفسه له في ترك المعصية، وفيه كذلك إكراه المؤمن نفسه على الطاعة ولو كانت كارهةً.

لذتها التي تريد أن تواقعها. فإن انتهت بالتوعد حمد الله، وإن أبت إِلَّا مواقعتها ورجت أَلَّا يعاقبها وغلبته وغفل عنها وعجز عن مجاهدتها فرجع إلى بعض ما يكره مولاها(١)، بصَّرها ثُمَّ ذمَّها وخوَّفها أن يكون مولاها قد سخط عليها(٢)، وأنزل بها العقوبة(٣) التي وعدها أن يعاقبها بها، فإن لم تُقْلِعْ(٤)، أتعبها بكثرة الصلاة وأجاعها وأعطشها بصيامٍ(٥)، أو مَنَعَهَا كثيرًا من شهوات الحلال

---

(١) هذه أيضًا فائدة نفيسة في بيان أنّ المرء قد يترك المعصية ويتوب منها ويجاهد نفسه ولكنه يَزِلُّ بعد ذلك ويقع في بعض ما ترك.

(٢) فيه ما يزجر به المرءُ نفسَه الأمّارة بالسوء، وهو تحذيرها من سخط الله عليها، وأنّها ربما زلّت بمعصيةٍ غضب اللهُ عليها فيها وكتب عليها السخط، كما ورد عن بعضهم أنّه قال: أخشى أن يكون قد اطلع عليّ في بعض معصيته فقال اذهب فقد سخطت عليك سخطًا لا أرضى بعده أبدًا.

(٣) فيه معاقبة النفس على فعلها المعصية وتركها الطاعة، وأنّ المرء إذا خوَّف نفسه عقوبةً أنّه يُنزِلها بها ولا يتهاون لئلا تتعود النفس ترك الطاعة وفعل المعصية.

(٤) لم تُقْلِعْ: أي لم تترك المعصية.

(٥) ورد عن السلف معاقبة النفس بالإكثار من الصيام كما ورد عن حسان أنّه مرّ ببستان فسأل متى بُني هذا البستان؟ ثمّ رجع إلى نفسه وقال لها: تسألين عمّا لا يعنيك لأعاقبك بصوم سنة.

التي لا تكاد أن تصبر عنها، وإخراج مالٍ تتصدق به من ملكه، بما يشق عليها نقصان ملكها منه، فنظرت إلى لذة المعصية قد ذهبت، وإلى العقوبة بها قد حلّت، وزادته العقوبة نورًا في قلبه(١) ونشاطًا إلى التقرب إلى ربِّه فانكسرت وقوي عليها وزجرها فانزجرت، ووعظها فاتعظت لأنّها مؤمنة وإن عصت ربَّها، وذكَّرها ما أنزل بها من العقوبة فعرفت أنّه سيعاقبها به إن عادت فتركت ذلك وانصرفت عنه. فما زال بها في كلِّ ما تأباه يؤدبها بمثل ذلك حتى قطعت كلَّ سببٍ كان يباعدها من ربِّها عَزَّوَجَلَّ فلمّا تركت عادتها واستقامت على طاعة ربَّها، ترك شدة العقوبة عليها، كراهيةَ الملال والنفور(٢). ثُمّ لم يأمن(٣) منها أن تعود إلى

---

(١) فيه أنّ عقوبة النفس على مخالفتها شرع الله أنَّ ذلك يزيد القلب نورًا ونشاطًا في الطاعة.

(٢) فيه أنّ تأديب المرء نفسه بالعقوبة الشديدة لا ينبغي أن يستمر لفترةٍ طويلةٍ لئلا تملّ.

(٣) فيه الحذر من النفس حتى فيما تركت من المخالفات فهي لا تستقيم على حال، وشعور المؤمن بالحذر من نفسه وعدم الأمان لها هو من أنفع ما يكون له ولها.

بعض ما رفضت ممّا يكره مولاها، فخفَّف عنها تناول بعض ما يقوِّي طبعها الذي يهيج منها هواها، فمنعها من بعض لذتها؛ من كثرة الطعام الذي ألفته من اللحم وغيره(١)، وشدة البطنة والامتلاء(٢)، وتعاهدها بالصوم إن قوي عليه، لأنّه لمَّا رأى شهوتها تنازعه من قِبَل طبعها أراد أن يكسر قِوَى شهواتها ليخلو قلبه فينظر إلى أعاجيب آخرته(٣)، ووعدِ ربِّه ووعيده، ويتيسر ويصفو ذكرُ ربِّه في قلبه، فرفع لها الفكرُ والتوهمُ(٤) أعلامَ(٥)

---

(١) منع المرء نفسه من اللحم بالكلية لا يُشرع، وأمّا منعها من الإكثار منه فلا بأس به.

(٢) يقصد أنّ المنع إنما هو من البطنة والامتلاء، وأنّ المرء يصل مع نفسه إلى ذلك بعد مرحلة التجويع الأولى والتي أدام عليها فيها الجوع الشديد.

(٣) فيه أنّه بدأ أولًا مع نفسه بترك المعاصي ـ كما سبق ـ ثمّ التفت إلى منعها من الشهوات المكروهة، وهكذا هدي السلف كما قال بعضهم: ألزم نفسك بالفرائض فإن استقامت فألزمها بالسنن فإن استقامت فألزمها بالآداب.

(٤) التوهم: أي التفكر في أمور القبر والقيامة والآخرة، وللمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب «التوهم» في ذلك وهو من الكتب القيمة.

(٥) أعلام: جمع عَلَم وهو الجبل، والمراد مشاهد الآخرة، فالتفكر أظهرها للقلب حتى صارت كأنّها جبال ظاهرة واضحة لديه.

الآخرة، فشاهد بها أهوالَهَا وشدائدَها، وأراها بالتوهم النار، والجنّة من ورائها، وأنّها لا تصل إلى الجنّة إِلَّا بعد النجاة من عذابها، فأبصرت ما لا صبر لها عليه(١)، فسخت بترك ما يجب طبعها خوفًا أن يورثها الركون إلى ذلك ما لا صبر لها عليه، فكان مَثَلُه في ذلك كالذي وقع الداء في رجليه فاسودت وتآكلت(٢) فخشي إن لم يقطعها أن يدب الداء منها إلى جميع بدنه، فبذل بعض ماله لمن يقطعها بشهوةٍ وسرورٍ لقطعها بعدما كان يعز عليه أن تنقطع شظية(٣) من ظفرٍ من أظفارها، ولكن لـمّا رأى السبب الذي لا يأمن أن يؤدي به إلى عطب بدنه سخت بذلك نفسه خوفًا ممّا هو أعظم منه، فكذلك هذا الذي نظر إلى آخرته ورأى أسباب هلاكه فيها في شهوات قلبه وجوارحه، ففارق ذلك بسخاءٍ ومحبةٍ، ولو كان لا يقدر عليه إِلَّا ببذله ما يملك

---

(١) أي من العذاب في النار، والعياذ بالله.

(٢) تآكلت: أي أصابتها الأكلة، وهو داء إذا أصاب الرجل ولم تُبْتَر انتشر إلى باقي الجسد (يُسمَّى الآن بالغرغرينة).

(٣) شظية: جزء صغير من الظفر.

لفعل كما بذل ما بذل لمن قطع رجله وحَسَمَهَا[١] بالنار، فاحتمل حرقة ذلك لخوف سوء العاقبة، وكذلك يحتمل المؤدب لنفسه الحرارات مخافة سوء عاقبة الأبد، وشتان بين العاقبتين، وشتان بين ما يرث القاطع لرجله من الراحة وما يرثه الخائف من الله تعالى من الراحة في جواره.

ـ فَأَلْزمَ قلبه الحذر، فلما سكنت نفسُه عن منازعتها وجانبت إلفها[٢]، واستحلت[٣] طاعة ربِّها، نازع طبعها إلى حبِّ العز والشرف وحسن الثناء والتبجيل على ما ظهر من طاعتها وتركت من معاصيها، فزجرها وخوَّفها نظر الله إلى ضميرها بالمقت إن أضمرت التقرب بعبادته إلى غيره، فانزجرت لأنّه رياء، والرياء شرك، ثُمَّ رجعت للتروُّح بالمنّ عليه أنّها أطاعت ربَّها وحده وأخلصت له عبادتها، فزجرها وقرَّرها بما تقدم منه في مجاهدته إياها، وأنّها أبت طاعة ربها، ونازعت إلى حب

---

(١) حسمها: أي كواها بالنار ليقطع نزيف العروق.
(٢) أي تركت ما تعودت عليه قبلُ من المعاصي والشهوات.
(٣) أي صارت طاعته سبحانه حلوةً سهلةً عليها.

الشرف عند العباد بطاعتها بعد تركها معاصي ربها، وأنّ المنّة للذي أيقظها لأدبها، ومنَّ عليها بأن صرفها عن محبوباتها فاعترفت أنّ ذلك كان من مولاها وأنّها كانت كارهةً، ثُمّ رجعت عليه أنّ الله تبارك وتعالى لمّا مَنَّ بذلك وقلبها عن محبتها قد فضَّلها بذلك على كثيرٍ من قراباتها وجيرانها وأخدانها، وذلك تروحٌ منها إلى التعظم بالكبر على غيرها ممّن هو أستر عنده منها فزجرها وذكَّرها سوء ما سلف من آثارها فيما بينها وبين خالقها، وما يخاف عليها من خواتم السوء في آخر عمرها(١)، وأنّ ما يعرف من ذنوبها أكثر من ذنوب(٢) من

(١) هذا أعظم ما يصدُّ النفس عن عُجبها بعملها واغترارها بطاعتها، وهو أنّ الأعمال بالخواتيم، والخواتيم مغيبة لا يعلمها إلا الله، فمن يأمن على نفسه بعد قول النبي ﷺ: **«إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»**.

(٢) هذا من أعظم ما يصدُّ النفس عن احتقارها غيرها من المسلمين، وهو أنّ حال الناس مستورٌ عنها، وهي تعلم من ذنوبها ما لَا تعلمه من ذنوب غيرها، والأمور عند الله بما في القلوب وليس بظاهر الأعمال، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله.

تروحت[١] إلى التعظُّم عليه، وأنها أفضل عند الله تعالى منه، فأذعنت وتواضعت لأنّ صاحب العيب إذا عُرِّف بعيبه أذعن وخضع فخشعت وانكسرت، ثُمّ رجعت عليه متروحةً إلى أنّ الله سبحانه لم يمنّ عليها بطاعته ويجنبها معاصيها ويذللها بالتواضع إلَّا وقد اصطفاها وجعلها من الصادقين له، تروحًا منها إلى ذلك لتنال السرور بذلك في طبعها، فزجرها وذكَّرها ما كان منها من ذنوبها، وخوَّفها أن يكون قد سُخِط عليه من أجلها، وأَنَّها لم تقم له بحقٍّ كما يحقُّ له، وأنَّها لا تدري على ما تموت فأذعنت وخافت ووجلت وصغرت، فلما أراها أنّ هذه الأربع تعارضه في طاعته لربه: الرياء والعجب والكبر والعزة، ألزم قلبه حذرها، وتعاهدها باعتراضها أَلَّا تكون مالت إلى بعضها، وهو غافلٌ ناسٍ.

فلما تبدَّلت أحواله، واستحلت النفسُ ما كانت تشمئز منه، وأنست مما كانت منه نافرة، وزهدت فيما كانت فيه راغبة، طهر

---

(١) أي استراحت بالتعاظم عليهم وتبجَّحت بالتعالي عليهم وقد يكون هذا التعالي في القلب وقد يزيد حتى تنبعث الجوارح بهذا التعالي أيضًا.

قلبه، وأنار منه اليقين بالغيب، فشاهد ما غاب من الآخرة بعقله، فقوي تعظيم الله في قلبه، واشتد خوفه منه، ورجاؤه إياه، فهاج منه الحياء من الله، وأزعجه الخوف من كل قاطع يقطعه من قرب ربه، وسببٍ يشغله عنه، وبعثه الرجاء، ونشطَّه للدؤوب[١] والاجتهاد، وأهاجه الحب على مناجاة سيده، والأنس به، والوحشة ممّا سواه، فأطال مناجاته، وأقبل الله تعالى عليه بعوائده[٢]، واتصال المزيد في قلبه، فأنار فيه ذكره، وعظم فيه حبه مع شدة الشفق أن يحال بينه وبينه، فاشتد شوقه إلى مولاه، وطال حزنه ووله[٣] عن الدنيا عقلُه إعظامًا وإجلالًا لهيبته مع الشفق والوجل أن يُقطع عن قرير عينه[٤] وذعر وفزع، فمرة تنفضه الرعدة برجفان قلبه، ومرة يهيج منه الوجد[٥] بسيلان

(١) الدؤوب: الاجتهاد في طاعة الله.

(٢) عوائده: أي عوائد الإيمان وخواطر وواردات الإحسان.

(٣) أي لهى عنها وانشغل بالآخرة عنها.

(٤) أي ربّه الذي تقرّ عينه وتسعد بطاعته ومحبته.

(٥) الوجد: هو الحب الشديد مع الشوق.

دمعه بالحرقات، وطورًا يثور بالزفرات[١]، وتارةً يزول عقله[٢] يحسب الجاهل بأمره أنَّ طيفًا من الجنّ قد اعترض له، وقد خامرته في أكثر أحواله البهتة، وغلبت عليه الكآبة، فهو في نهاره نافرٌ مستتر، مستوحشٌ من الخلق، وليله ليل مضطرب[٣]، فلو أبصرته أيها المغرور بدنياه، المخدوع عن طريقه في سواد ليله، وقد هدأ العباد ولم يهدأ فؤاده، وسكن الخلق ولم يسكن خوفه، واستراحت الخليقة ولم يفتر حنين قلبه، وقام بين يدي ربه بقلبه المحزون، وفؤاده المغموم، منكسًا رأسه، مقشعرًا جلده، قد ثنى عنقه، وحنى صلبه، والحياء قد غلب على قلبه فافتتح كتاب ربّه مع تعظيمه لما يتلو إجلالًا للمتكلم به [سبحانه]، فما لبث أن هاجت عليه أحزانه، واشتعلت حُرقات فؤاده، وأسبل دمعه،

---

(١) الزفرات: جمع زفرة وهي نفس حار من قلب محترق، ويكون ذلك من القلب الحزين.

(٢) زوال العقل ليس من الكمال، فالرسول ﷺ وأصحابه لم يرد عنهم ذلك عند قراءة القرءان أو عند التفكر وكانوا أكمل حالًا من غيرهم.

(٣) أي من قلة نومه وكثرة تردده إلى قيام الليل، أو يكون الاضطراب من البكاء من خشية الله.

وَخَرَّ في بكائه خشية أن تسمعه أذنٌ غيرُ سمع ربّه، فأنفاسه متوهجة، وزفراته بحرق فؤاده متصلة.

فلما طال منه القيام بين يدي ربه، اشتاق إلى التذلل له بتعفير وجهه خضوعًا له، فلو أبصرته منحطًا من انتصابه بحرقة قلبه، وأزيز[١] صدرِه، وتراجع أنفاسه، فخر ساجدًا على وجهه، ذاكرًا لنظر مولاه إليه، سائلة دموعه على خده حتى أثرت في وجهه، يضرع ويتضرع، ويهتف ويبكي، ويزفر، وقد ملأ تعظيمُ الله قلبَه، وأذهبت رهبةُ الله عقلَه، قد ارتفعت عنه السآمة، وزايلته[٢] الملالة[٣]، لما في صدره من الإجلال لله، والهيبة له.

وكيف يسأم وهو مستقل لعمله، مقصر عند نفسه في حزنه، وفي حرق فؤاده[٤] لعظيم ما ألزم قلبه من تعظيم الله وخشيته، والتشوق منه، والحنين إليه، وهو مجتهد مذعور[٥]، مع ذعره

---

(١) أزيز صدره: أي صوت الصدر من البكاء وغليانه به كما يغلي القدر.

(٢) أي زال عنه الملل من الطاعة.

(٣) السآمة هي ملل متطاول الزمن أو ملل مع تضجر، والله أعلم.

(٤) أي يرى نفسه مقصرًا في حرق فؤاده وحزنه.

(٥) الذعر هو الخوف والفزع.

وفَرَقِهِ[١] مشتاقٌ، ذو حنين، وَالِهٌ[٢]، مُعَلَّقٌ قلبه بمولاه، لاينفد من قلبه ذكرُه، وشدةُ هيبته، وكيف تنفد هيبة من قد أقبل عليه بالتوفيق، وعطف عليه بالرحمة، والتنبيه؟

وقد قرب من قلبه ذكر سرعة لقاء ربه، فهو في كل وقت يتوقع نزول الموت به، فلم يتهنَّ في نهاره بقرار، ولا اطمأن فؤاده من خشية المباغتة بالموت، في كل حالٍ، وأوانٍ، وقد أيقن أنَّه قائمٌ بين يدي مولاه بلا حجاب يحجبه عنه، ولا سترٍ يواري بصره[٣]، فكأنه يعاينه، قد ثنى عنقه، وحنى صلبه، مع وجيفٍ[٤] كأنّه في شدة شغل قلبه ليس في الدنيا، ولا من أهلها، قد ضمّر[٥] نفسه للسباق غدًا، وتخفف من الدنيا لسرعة الممر على جسر

---

(١) الفرق: شدة الخوف.

(٢) الوَلَه: الحزن مع العزوف عن الدنيا.

(٣) أي الله ينظر إليه ولا يحجب نظر الله إليه شيء.

(٤) الوجيف: شدة اضطرابه وخفقانه من الإشفاق والخوف.

(٥) الضمور هو الضعف والهزال، والمراد: قلة الطعام والزهد في الدنيا وقلة ما ينال من شهواتها استعدادًا لسرعة وصوله بسلام إلى الجنّة كالخيل التي تُضمر لتستطيع الجري في السباق بسرعة.

جهنّم[١]، ذابل، ناحل، دائبٌ راجٍ[٢]، نعيمُه في الدوام على أحواله، طالبٌ إلى الله تعالى أن يزيده حزنًا[٣] ووجيفًا، وحنينًا، وشوقًا، ودؤوبًا، واجتهادًا، مبادرٌ، مشمّر، متنعمٌ بالطمع[٤]، وحسن الظن، والأمل، محزون بخوف الفوت والحرمان، وهو مع ذلك راضٍ بقضائه، مستسلم لأمره، واثق لما ضمن له ووعده، لا يرى عزًا إلّا التعزز به، ولا شرفًا إلّا في الإقبال عليه، بصير بداء نفسه، ونزغات عدوه، لا يركن إلى خطرة[٥]، ولا تتموه[٦] عليه زينةُ فتنةٍ، قد ارتقى إلى القرب بنفاذ بصيرة من دلائل الكتاب والسُّنَّة.

---

(١) أي على الصراط فإنّه كلما تخفف المرء من أحمال الدنيا سرع مروره عليه.
(٢) أي مداوم على الجدّ في طاعة الله راجيًا لفضله.
(٣) الحزن غير مطلوب ولكن المراد هو حزن النفس على التقصير في طاعة الله والحزن على ما فات من طاعة الله وكذا حزن النفس على تقصير الخلق في طاعة الله، والحزن الناتج عن الخوف من عقاب الله وحسابه، وكذا أهوال الموت والقيامة، فهذا حزن مشروع.
(٤) أي الطمع في فضل الله ورحمته.
(٥) خطرة: أي ما يمر على القلب من وسوسة أو همٍّ بمعصية أو شهوة.
(٦) أي لا تلتبس عليه بل يميزها ويعرفها ويجتنبها.

فإن سألته وجدته بصيرًا بالطريق إلى الله سبحانه، وإن أجاب أجابك بالوصف عن طريقٍ قد سلكه، وعن آفات قد رفضها، وعن مكابدة قد جاهدها، وعن درجاتٍ في القرب من الله سبحانه بعلمٍ قد ارتقى إليها.

فدلَّ المريدين(١) على ابتدائه، وما عَرض له من القواطع(٢)، وبأي شيءٍ قطعها، وأنَّه لم يصل إلى السرور والراحة إلَّا بعد المكابدة والمجاهدة، لكي يتحملوا مثل ما لقي حتى يُفضوا إلى الغنى والراحة والسرور. وأخبر عن طريق المؤدب لنفسه، ولم يذكر ذلك عن نفسه لئلا يُظهر ما كان من طاعته لربه، فأخبر أن المريد الله عَزَّوَجَلَّ كان أول ابتدائه مَا مَنَّ الله عليه من تنبيهه لمطالبة نفسه بما طالبها به، حتى أجابته وانقادت له نفسه، ثمّ كان الغالب عليه بعدُ شدة الوجل والخوف، قد أشرف(٣) على

(١) المريد: يطلقه الصوفية على السالك لطريق الزهد المبتدئ في طريق الهداية.

(٢) القواطع: هي ما يقطع المرء عن سلوكه طريق الزهد من شهوةٍ أو هوًى أو غيرهما.

(٣) أي قرب أن ييأس قلبه لولا رحمةُ الله به.

الإياس، فلا يمنعه من اعتقاده إِلَّا أنّه عليه محرم لمعرفته بجود ربه، وكرمه، ولكن الغالب على قلبه خوف أَلَّا يُقْبَل مثلُه لعظيم جنايته وجرمه من غير إياس أن يتفضل عليه بجوده وكرمه. وإذا تلا آية رحمة وثواب، قال: هذا للطاهرين غيري، فلما نظر الله سبحانه إليه كذلك رحم ضعفه، وقلقه، ووجله، وقلة هدوءه، فأهاج الرجاء من قلبه، وذكَّره أياديه، وتفضله، والسوء الذي نقله منه، وما بدله بعد إساءته، وما عوَّضه من الإحسان، والإقبال، فأحسن ظنه، ورجا أن يكون لم يمن عليه بذلك إلا لسابقة سبقت له منه بالرحمة قبل أن يخلقه، فغلب الأمل على قلبه، أنَّ الله تعالي سيعفو عنه إِذ مَنَّ عليه بما مَنَّ، فأنس بالرجاء، وعظم الشكر في قلبه، وخاف أن يعذبه على تضييع الشكر له، فدأب في الشكر رجاء المزيد، فزاده الله أُنسًا به، وسرورًا بحسن الظن به، فبعث أصل الخوف والرجاء إلى قلبه، فكانا قائديه اللذين يمنعانه من العطب، وصارا عَلَمين في قلبه، إن عارضته غرّةٌ[1] أهاج الإشفاق والخوف فخاف عواقب

---

(١) غرّة: أي اغترار برحمة الله ورجاء كاذب بغير عمل.

الآخرة. وإن عارضته فترة أهاج الرجاء فنفى به فترته. وإن عارضه إياس أهاج حسن الظن بالله، والرجاء فقمعه.

فهذا كان طريقه، وهو الذي نصبه الله سبحانه وتعالى للمريد ليؤدب نفسه، فلا يزهد الجاهل في مقام المريد، المقبل على ربه عَزَّوَجَلَّ، تراه من الدنيا متقللًا، ذليلًا، خاشعًا، حزينًا، باكيًا، منقبضًا[١] عن أبناء الدنيا، مظلومًا لا ينتصر، ومسلوبًا[٢] لايكافئ[٣]، شعثًا أغبر متقشفًا[٤]، دني اللباس[٥]، متقرحًا[٦]، منفردًا غريبًا[٧].

---

(١) أي متقاعدًا عن السعي في زائد أمور الدنيا وشهواتها وعزِّها، وليس المقصود القعود عن الكسب في الدنيا لما لابد منه.

(٢) أي يسلبه النّاس حقَّه من أمور الدنيا فيعفو ويصفح.

(٣) لا يكافئ: أي لا يرد الإساءة بالإساءة.

(٤) الأشعث: ذو الشعر المتفرق غير المغسول ولا المسرّح. الأغبر: الذي علا ثوبه الغبار والتراب. التقشف: هو قذر الجلد وعدم تعاهده بالغسل.

(٥) أي يلبس الثياب غير الفاخرة، ولكن لا يلبس الثياب القذرة أو التي يشتهر صاحبها بالزهد والتواضع.

(٦) متقرح: التقرح هو تجرُّح الشفاة من أكل الغليظ من الطعام.

(٧) أي منفردًا عن أهل الدنيا غريبًا عنهم لا يخالطهم في أمور دنياهم.

لو اطلع الجاهل على قلبه، وما استودعه الله تعالى من إحسانه، وما أعقبه مما ترك من زينة الدنيا ونعيمها، لرغب في مقامه، وعلم أنه هو الغني الجميل، المتلذذ، الفَرِحُ، المسرور، لأنّه أدرك بغيته وظفر بطلبته من ربه، لأنّه فارق المنغِّص من الدنيا، المكدِّر الذي لا يُنَال إلا بهموم الحرص، ونصَب الطلب، وشغل القلوب به أن تناله، وخوفها أن يزول فتفتقر بفقده، مع أسقامٍ، وأمراضٍ، وآفات، ومصائب، وفجائع، ومكاره لا ينفك منها من ركن إلى ذلك مع حجب قلبه عن طيب ذكر ربه، والأنس به، والقرب منه، وتركه طلب نجاته في آخرته، وتعرضه لعذاب الأبد عن قليلٍ بعد موته، لأن الراكن، المؤثر ذلك على طاعة ربه، يتوقع الموت كما يتوقع المقبل على ربه، فإما الرضى وحسن المآب، وإما السخط وسوء المآب، فلا يجد الراكن إلى الدنيا حلاوتها، والرافض للدنيا متنعم بها، لأنّه قد ترك الدنيا لمن لا يخيب مَنْ طلبه، ولا يترك مكافأة من عمل له، ولا العوض في الآخرة له بما صبر عنه من الدنيا، فقد عَقِل لِمَنْ عَمِل، وأيقن بسرعة لقائه عاجلًا، فهو لأهل الدنيا راحمًا إذ

اشتغلوا بما به يتعذبون، وعن قليلٍ إياه يُسْلَبون، لا محيص لهم من الحساب عليه، مع ما حُرِموا مما ذخره المتقون عند ربهم، وقدموه لأنفسهم.

يا أخي، كيف يكون هذا المريد المتقشف، المتقلل مسكينًا؟ وهو للخلفاء والملوك مزاحم ينظر إليهم، وما ينوبهم[1] في دنياهم من همومٍ ونصبٍ، وما يعلم مما يلاقون من شدة الحساب بعد موتهم؟ أم كيف يكون ذليلًا من هو بالله عزيز، وبذُلِّه وخشوعه يبتاع عز الأبد في جوار الرب الأكرم؟ بل هو في الدنيا عزيز به، فارق عز الدنيا ليعوضه مولاه الرفعة عنده في جنته. أم كيف يكون غريبًا من كان له أنيسًا؟ أم كيف يغمُّ التفردُ وقطع محادثة العباد، مَنْ قلبه مِنَ الحكمة مؤيَّدًا ولسانه بمناجاة الله دائبًا؟ أم كيف يكون ضعيفًا مَنْ رفض سعة الدنيا، ولم يرضَ بها عيشًا إذ أيقن أنّه لما مفارقٌ، وأنَّه يطلب برفضها التبجح في سعة جوار ربِّه مع خلود الأبد؟ لو بذلت مثلَ الذي عملت في

(١) ينوبهم أي يصيبهم.

الذي علمتَ لم تؤدِّ شكر نعمه في الدنيا. إحسان الله إليك في إحسانك لا يقوم به إحسانك. علامة الشاكر همُّه بالقيام بالشكر وسؤالِ[١] الله إياه عن الشكر، فإذا كان كذلك رضي بالقليل من الدنيا، وخاف أَلَّا يقوم بشكر الكثير، ومن لم يكن همُّه الشكر وسؤال الله إياه، لم يقنع، فهو أبدًا لهفان[٢]، وأبدًا عطشان.



---

(١) أي همّه بسؤال الله إياه عن الشكر وكيف يجيبه.

(٢) أي متلهفًا إلى الدنيا يشعر بالحاجة والفقر ولو كان عنده كنوز الدنيا بأسرها كما في الحديث: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى إِلَيْهِ ثانيًا وَلَوْ كَانَ لَهُ اثْنَانِ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ**».